

## بحث في الإيمان

### للأستاذ علي الظنطاوي

إلى الأخ البغدادي الذي كتب إلى أمس



كتبت إلى تسألني عن الإيمان ، وتريد دليلاً عقلياً على صفات الله السمعية ، وصورة حسنية لما خبر به من المنيات كالجنة والنار ، والجن والملائكة ، حتى لكأنك تراها بينك ، وتعرض للقضاء والقدر وتسردها شهباً عرضت لك تطلب مني ردها ، إلى آخر ما ذكرت في كتابك من مسائل تنوء بها أكبر الأدمغة البشرية ، وتمجز عن حلها العقول العظيمة ، بله عقل مثلي ودماغه . من أجل ذلك أزمعت السكوت عن الجواب ، ثم بدا لي فرأيت الكلام في هذه المسألة واجباً ، لأن معرفة الله أول مطالب الحياة ، وأسمى غاية لوجود البشر ، ولأن الشباب في حاجة إلى مثل هذا البحث ؛ ثم إن البحث في ذاته لذيذ ممتع . فأقدمت على فتح بابيه ، وذكرت ما ألهمته فيه

### المعارف البشرية

أورد النسفي رحمه الله في أول عقائده هذه الكلمة الجامعة قال : « حقائق الأشياء ثابتة ، والعلم بها متحقق ، وأسباب العلم كثيرة : الحواس السليمة ، والعقل ، وخبر العاقد للمعصوم . أي لأن المعارف البشرية إما أن تكون مشاهدة بحسنة تراها ونسمها ، وإما أن تكون معقولة ندرها بالفكر والقياس الصحيح ، وإما أن تكون منية علمنا بها من طريق الوحي . أما الحساسة فيتساوى فيها الناس والحيوان ، وليس في إدراكها ميزة للناس ، وإن كان أرقها عند الناس أوسع ، وإدراكهم لها أرق . وأما المعقولات فيستوى فيها الناس كالمهم من كل ذي عقل سليم . وأما الإيمان بالمنيات فهي الميزة التي تمتاز بها عقول المؤمنين الذين يشاركون الناس في الحس والتفكير ، ويختصون دونهم بالإيمان .

وسنحاول أن ندرس فيما يلي قيمة كل مصدر من مصادر المعرفة الثلاثة .

### الحواس

تستطيع أن تشك في كل شيء ، ولكنك لا تستطيع أن تشك في شيء تراه أو تلمسه ، لأن الحس أصبح طرق المعرفة وأدائها ، ولأنك إذا قلت : هذا الشيء ( محسوس ) ، تكون قد عبرت بأبلغ تعبير عن الثقة بوجوده ، والاطمئنان إليه ، والحواس هي طريق المعرفة الأولى ، والنوافذ التي تطل منها النفس على العالم الخارجي ، فلو أغلقت هذه النوافذ آض العالم عدماً . ولو أن رجلاً ولد أعمى أصم لكان عالم الألوان والأصوات ( بالنسبة إليه ) غير موجود ، ولا استطاع مطلقاً تصور الحضرة والحجرة ...

كل هذا مسلم به ، ولكن هل يجوز لنا أن ننكر وجود شيء من الأشياء لأننا لا ندره بمواسنا ؟ هل يجوز لنا أن نقول إنه ليس في الوجود ملائكة مثلاً ، لأننا لم نر الملائكة ولم نسمع أصواتهم ولم نلمسهم ؟ هل نستطيع أن ننكر الشياطين ؟

وبالعبارة الثانية : هل هذه الحواس كاملة تطلنا على كل شيء في الوجود ؟ وهل هي صادقة لا تخدعنا ولا تترينا الشيء على غير حقيقته ؟

إني أسألك أولاً : كم هي الحواس ؟ فتقول إنها خمس . فأسألك : ألا تعرف لها سادسة ؟ فتضحك وتحسبني أضح ، لأن الحواس كاملة لا يمكن الزيادة عليها . وأنها مشهورة معروفة من قديم الزمان ، لم يفكر أحد أن بالامكان كشف حاسة سادسة لها .

بينما يعرف صغار طلبة البكالوريا الذين يقرأون علم النفس ، أن هناك حواس أخرى ، وتعرف ذلك أنت إذا دقت في نفسك وجلت مشاعرك ؛ ألا تشعر بالتمب موجوداً في عضلاتك عقب المشي الطويل أو الحركة العنيفة ؟ ألا تحس بالجوع والمطش والتهاب الجوف ، وغثيان النفس ؟ فبأي حاسة من الحواس الخمس عرفت ذلك ؟ أبصرته أم سمعته ، أم شمته ريحه أم لسته ؟ إنك لم تدره بشيء من ذلك ، بل بحاسة سادسة دعنا نسمها ( الحاسة المشتركة ) مثلاً . . .

ثم ... ألا تحس وأنت مغمض عينيك بأن يدك ممدودة أو مرفوعة ، وأن كفك مقبوضة أو مبسوطة ؟ إنك لم ترها ، ولم

## الخيال

وإذا ثبت أن الحواس ناقصة محدودة، ثبت أن الخيال محدود، لأن الانسان لا يستطيع أن يتخيل شيئاً جديداً لم يدخل في دائرة الحس، ولأنه لا يعمل للخيال إلا تأليف صور جديدة من الأجزاء القديمة. فالذي نحت تمثال فينوس لم يأت به من العدم وإنما جمع في ذهنه أجمل أنف رآه، وأجمل فم، وأجمل عين، ثم ألّف لها صورة جديدة لم يدركها الحس بمجموعها ولكنه أدرك مفرداتها على كل حال. والذي صور الحصان المجنح، أخذ جسم الحصان وجناح الطائر. من أجل ذلك سمى كثير من علماء النفس هذا الخيال جامعاً، وكرهوا أن يطلقوا عليه لفظ (الخيال البدع). فكيف إذن تستطيع أنت تتصور الجنة أو الملائكة أو الحياة الأخرى وأنت لم تدرك بحواسك أي جزء من أجزائها؟ إنه ليس في النفس شيء لم يدخل لها من العالم الخارجي، وأنت لم تمس في الجنة، فاذا قلت لك مثلاً... إن في الجنة أنعاماً موسيقية عطرة، أو أن فيها عطوراً لها رائحة خضراء، فهل تستطيع أن تتخيل هذه الأنعام العطرة، أو هذه الرائحة الخضراء؟ هل تقدر أن تتخيل بدماء رابعاً غير الأبعاد الثلاثة المعروفة (الطول والعرض والارتفاع)؟ هل تتصور مثلثاً ليس له زوايا، ودائرة ليس لها محيط؟ كذلك لا تقدر أن تتصور أن لله يدا ليس لها طول ولا عرض ولا جسم ولا صلابة ولا صفة من الصفات البشرية ولا تشبه الأيدي ولا تشاركها إلا في الاسم. ألا تجد نفسك مضطراً إلى التسليم بالمعجز والاقرار بأن المستحيل على الخيال البشري الوصول إلى معرفة ذات الله وصفاته الآلهية؟

## العقل

تقدم معنا أن الحواس خدعت، فأحست القلم قلين، ورأت العود المستقيم منكسراً، والسراب ماء. ولكن العقل لم يحدع، وكان يعلم أنه قلم واحد، وأن العود مستقيم، والسراب ليس بماء، فالعقل إذن أوسع قدرة، وأصح حكماً من الحواس. ولكن أليس لقدرة حدود؟ هل يقدر العقل على أن يحكم على كل شيء؟

الجواب: لا. لأن العقل لا يستطيع أن يحكم على شيء،

رآها بحاسة من الحواس الخس، وإنما أدركتها بحاسة سابعة ناسمها (الحاسة العضلية) مثلاً...

وكذلك حسك بالحرارة والبرودة، فإنها حاسة ثامنة، حسك بتوازن جسمك عند المشي أو الوقوف؛ بل لقد استطاع علماء أن يكشفوا مركز هذا الحس، وأن يعلموا أنه في الأذن الخلية، في مادة كلسية مبلورة، لو أتلقت في حيوان فقد حساً وازن وسار مترنحاً كما يترنح السكران...

فالحواس ليست كاملة لأن الكامل لا يقبل الزيادة، وما نت ناقصة فيظل في الوجود أشياء لا ندركها أو ندركها ندرى أننا ندركها

ولناخذ الكائنات التي ندركها، هل ندركها كاملة؟ أنا أرى لوان ولكن هل أراها كلها؟ هل أرى ما وراء الجدار؟ هل بر عصفوراً على شجرة من مسيرة يوم؟ هل أميز رجلاً في صحراء على بعد عشرة أميال؟ وأنا أسمع الأصوات، ولكن أسمع صوت نملة تسير على التراب؟

أفيحق لي أن أنكر أن للنملة صوتاً لأنني لا أسمع هذا الصوت؟ أن أجد ما وراء الجدار لأنني لا أبصر ما وراءه؟ فإنا إذن إنك من الكائنات أنواعاً معدودة، وأدرك من هذه الأنواع دبر محدودة

وهذه المقادير التي أدركها، هل أدركها على حقيقتها؟ ألا لي حواسي أو تضل؟ إنني أضع أصبعي الوسطى على السبابة ثم رى القلم على باطن الأصبعين فأحس بقلين... وأضع العود بتقيم في الماء فأراه منكسراً... وأنظر في الصحراء فأرى الرمال هماً غزيرة. على حين أنه ليس هناك إلا قلم واحد، وإن العود بتقيم يبق في الماء مستقيماً، وإن رمال الصحراء لا ماء فيها، لكن حواسي أخطأت وضلت. وانظر أي كتاب من كتب النفس (السيكولوجي) تر من ذلك شيئاً كثيراً، فاذا كانت هي قيمة الحواس، فهل يحق لنا أن نجعلها وحدها طريق يفة، وأن ننكر كل أمر لا تقع عليه حواسنا؟ ألا ننكر سنا قبل كل شيء لأن نفوسنا وأرواحنا لا ندركها حواسنا تعرف ماهيتها؟

أو يدركه إلا إذا حصره بين شيئين هما الزمان والمكان . لذلك يسأل العقل دائماً : متى ؟ وأين ؟ فلو قلت لك : إن حرباً وقعت ولكنها لم تقع اليوم ولا أمس ولا قبل سنة ولا أقل ولا أكثر لم تصدق ذلك ولم تدركه . ولو قلت لك : إنى رأيت مدينة ليست في شمال ولا جنوب ولا سهل ولا جبل ولا هواء ولا هي في مكان ، رددت ذلك وكذبت به ، لأن الزمان والمكان ركنا العقل لا يقوم إلا عليهما . وبديهي أن ما اتصل بذات الله لا يخضع للزمان والمكان ، ولا يطلق عليه متى وأين ... ولذلك يعجز العقل عن إدراك أى شئ يتصل بالله عز وجل وصفاته ، ولا يستطيع أن يعرف عنها شيئاً بلا معونة من الخارج .

ثم إن العقل محدود ، فلو قلت لك : إن خطاً أبيض يمتد في الظلام ليس له آخر ، وأردت أن تفكر في هذا الخط ، وتجمع في إدراكه عقلك ، لمجزت عن إدراكه وشعرت بأن عقلك ينازعك منازعة شديدة إلى وضع آخر له ، ويميل إلى قطعه وإدراك نهايته . ولو قلت لك : إن المؤمن خالد في الجنة دائماً دائماً دائماً . . . وفكرت في ذلك لأحسست من عقلك ميلاً قوياً إلى وضع حد لهذا الدوام . ويتجلى هذا الميل في الرياضيات العالية التي فرضت اللانهاية نقطة وجعلت منها  $(\infty +)$  لانهاية موجبة ، و  $(\infty -)$  لانهاية سالبة . . .

فإذا كان العقل محدوداً ، فكيف يحيط بالله وهو عز وجل غير محدود ؟ هل يمكن أن تضع بغداد في غرفتك ؟ لا . والله المثل الأعلى !

### الوحي :

يبين لك من هذا ضرورة الوحي ، والوحي ضرورة عقلية وضرورة عملية .

أما ضرورته العقلية فإدراكنا من عجز العقل عن إدراك ما وراء المادة ، وعن معرفة الله ، فلم يكن بد من إتمام نقص العقل بعلم من الخارج ، وهذا هو الوحي .

فالوحي علم خارجي يصل إليه العقل بالسمع والتعلم ، كما أن المعارف المعقولة علم داخلي يصل إليه العقل بالادراك والتفكير ، وكلاهما من الله . لذلك لا يمكن أن يكون بينهما تناقض مطلقاً ، لأن الله عز وجل مبدع حكيم ؛ ومن شروط حكمة المبدع ألا

يكون فيما يبدعه تناقض ، فالدين الصحيح ( أعني الوحي ) والعقل السليم متفقان في المبدأ ، متعاونان على بلوغ الغاية ، لا يقوم أحدهما إلا بالآخر . فلا بد للوحي من عقل يدركه ويؤمن به ، ولا بد للعقل من وحي يكمل نقصه ، ويمكنه من إدراك ما لا يستقل بإدراكه منفرداً . وليس معنى هذا أن العقل يستطيع إدراك كل ما جاء به الوحي ، لأنه لو كان هذا لما كان للوحي من حاجة ، ولكن معناه أن الوحي لا يناقض العقل ، ولا يوجب ما يحيله ، أو يحيل ما يوجبه وأما ضرورته العملية فهي أن الفضيلة والعدل لا تقومان في الأرض إلا بقيام الدين . وبيان ذلك ان الانسان مسوق أبداً في حياته بالنقمة الخاصة ، لا يعمل عملاً إلا إذا كان له فيه فائدة أو لذة ؛ وعبثاً تحاول حين تحاول أن تجد عملاً واحداً يعمل امرؤ لمنفعة غيره فقط . . . ولست بحاجة إلى سرد أمثلة من لاروشفوكلد فقد نشرت عنه الرسالة فصلاً ممتماً في عدد من أعدادها الماضية لا أذكر رقمه تستطيع أن تفتش عنه وترجع إليه ، ولكن أسأل القارئ ، وأمل أن يجيب بانصاف : هل يتصور رجلاً ملحداً ( لا يؤمن بالله واليوم الآخر ) فقيراً جائعاً ليس معه إلا قرش واحد لمشائه يضع هذا القرش في صندوق الطيران الوطني أو صندوق جمعية خيرية من غير أن يراه أحد ، ثم لا يخبر بذلك أحداً ولا يرجو ( بالطبع ) ثواب الله ، وإنما وضعه حباً للآخرين أو يتصور طالباً رأى ورقة جاره في الامتحان تستحق الرسوب فضحى بنفسه من أجله فوضع اسمه على ورقته ، ورضى بأذرىسب هو لينجح ذلك ، واحتمل لوم أهله وتأنيب أصحابه ، و يخبرهم ولم يخبر ذلك الطالب بما فعل ، ولم يرج عليه ثواباً من الله وإنما فعله حباً للآخرين ؟

قد يفعل ذلك إذا كان عاشقاً ؛ غير أن العشق أبعد شئ عزراً حب الآخرين ، بل هو الأنانية بأفطع أشكالها . فأنت لا تحب مطلقاً شخصاً محبوباً ، وإنما تحب لذاتك فيه : تحب نفسك ولو ضاعت هذه اللذة ، بأن فقدت المحبوب جماله بمرض مشوه أو بذل نفسه لفيرك لأقلت عن حبه ، بل لكرهته أشد الكراهية والحب العذرى خرافة ليس هذا موضع الكلام في بطلانها .

فن هو إذن الذى يضع قرشه في الصندوق وينام جائعاً ، ويؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة ؟ هو المؤمن بالله واليوم الآت

الماء هو الماء ، ليس الماء ورقة ولا شجرة ولا قطعة ولكنه ماء . . . والأرض هي الأرض . هذه بديهية ثابتة لا يستطيع العقل أن ينكرها مهما اختلفت الأعصار والأمصار ، فما هو الدليل عليها ؟

ما هو الدليل على أن الجزء أصغر من الكل ، وأن وجود الشيء ذاته في الوقت عينه وانعدام هذا الشيء مستحيل . إن التبدل على أمر معناه رد هذا الأمر إلى بديهية ثابتة . فكيف ندلل على البديهية وإلام زردها ؟

وكيف يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل ؟ ومثل هذه البديهيات تماماً الاعتقاد بوجود إله ، بدليل أن البشرية لم تنش يوماً واحداً بغير هذا الاعتقاد وإن اختلفت المدارك فمرف بعض الناس الإله الحقيقي الذي لا تدركه الأبصار ، وألصق بعضهم صفة الإله ببعض المخلوقات ثم عبدها لانداتها بل لأن فكرته عن الإله تمثلت له فيها — وقد يتعرض على معترض بأن في الشبان اليوم من ينكر الإله ولا يقر بوجوده فأجيب بأن هذا الشاب لوضاع في صحراء ويئس من المعونة أو أصابه مرض عضال عجز عنه الأطباء لعاد مؤمناً بالله ، ولآب إلى الله مقرأ مستغفراً . فالإيمان لم يذهب من نفسه وإنما غطته عوارض زائلة . وذلك قريب من قول السيدة رابعة العدوية وقد خبروها أن ( فلاناً ) من العلماء أقام ألف دليل على وجود الله . فقالت لو لم يكن عنده ألف شك لما أقام ألف دليل ! قيل لها : فما هو إذن ؟ قالت من ضاع في الصحراء وانقطع ماذا يقول ؟ قالوا يقول : يا الله ! قالت : ذلك هو الله . وقول أناتول فرانس : إن كذا غراماً من السكر في بول أشد الناس إلحاداً ترده مؤمناً . يريد أنه لو أصيب بمرض ويئس من الحياة .

\*\*\*

فاذا عرفت يا سيدي قيمة الحواس ، وحدود الخيال ، وطاقة العقل ، وفائدة الايمان ، كنت أنت الذي يجابو على ما بعثت لي به من أسئلة . والسلام عليك ورحمة الله .

على الطنطاوي  
مدرس الأدب العربي  
في الكلية الشرعية ببيروت

« دمشق »

لأنه أسى من البشر فهو خارج عن النواميس النفسية ، والمبادئ مامة ؛ بل لأنه يشترى لذة كبرى بلذة صغرى ، فهي أيضاً ثانية . . . يبدل قرشه هذا ليأخذ في الآخرة أضغافاً مضاعفة ، يضحى بحياته هذه القصيرة الشقية لينال حياة طويلة سعيدة الجنة . . . فالضحية إذن لا تكون إلا ثمرة للدين ، أي للوحي . ولنعرض المسألة بشكل أوضح : لو محى الدين من الأرض بل تكفي القوانين والأخلاق الوضعية لضمان الفضيلة والعدالة ؟ ما الأخلاق فليس لها مؤيد عملي ، وأما القوانين فتؤيدها القوة ، لقانون معناه الشرطي . فاذا سرق اللص ولم يره أحد ، ولم يقدر عليه الشرطي ، فسرقته جائزة عملاً وإن لم يجز نظرياً . وإذا قتل قاتل ولم يشهد جريمته أحد فجريمته جائزة وهو غير مسئول نام القانون . ونتيجة ذلك ان الجرائم تنتشر ويستعمل الناس ذكاهم مواهبهم في ابتكار الحيل للفرار من القانون كما ترى اليوم في مض بلدان الغرب التي تستغل فيها العلوم والفنون للسرقة والنش الاحتيال ، في حين أن الدين يؤيده اتباعه ، وضامنه فيه . للدين لا يستطيع أن يسرق او يقتل ولو لم يره احد ، لعلمه ان أنه يراه ، ويطلع عليه ، وهذه اقوى وسيلة لنشر الفضيلة :

لا تنتهي الأنفس عن غيبتها ما لم يكن منها لها زاجر

### فكرة اليوم

وهناك فائدة أخرى للدين : هي الاطمئنان الذي يحس به من حيال النكبات والمصائب ؛ فبينما يري غير المؤمن مقبلاً على التحار ، يائساً فانطاً ، نجد المؤمن راضياً بقضاء الله مستسلماً به . وقد يفهم من هذه الفائدة أن الدين فطرة في الانسان على عد قول دور كايم : الانسان حيوان ذو دين وأكبر الأدلة على لك فكرة الإله . فالاعتقاد بوجود إله ازل خالد قوى خير عادل وجود مع الانسان منذ وجد الانسان . وليس من حاجة لاقامة لأدلة العقلية على وجود الله ، كما أنه لا حاجة للتدليل على أن لجزء أصغر من الكل ، لأنهما من البديهيات

ويان ذلك أن الانسان لما بدأ يفكر نظر في نفسه فوجد بها مبادئ لا يد له فيها ، ولا يدري من أين جاءت ولا يعرف لها دليلاً واحداً ، وجد أن الذي هو هو .